افتتاحية العدد:

البقاعي يضرب بعقله الحجر

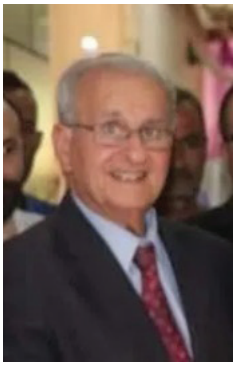

بقلم: الأستاذ الدكتور يوسف الصميلي
أستاذ متقاعد في الجامعة اللبنانية كلية الآداب
المشرف التربوي العام على مؤسسات الغد الأفضل في البقاع

. ضرب البقاعي بعقله الحجر، فانبجس منه شريان حياة البقاعيين، حين كان للبقاعيين حياة مع نهر الليطاني الممتد من أقصى الشمال في الهرمل إلى أقصى الجنوب في الناقورة، شاقاً طريقه بشكل لولبي من البقاع الشمالي إلى البقاع الأوسط فالبقاع الغربي، حيث حط الرحال لدى المهندس الموهوب عبد العال، ابن لبنان البار، الذي له جذر بقاعي في بلدة بعلول، المتكئة على سفح السلسلة الشرقية بجوار بحيرة القرعون، البحيرة المظلومة هي والليطاني على حد سواء بعد العبث اللامتناهي بهما على كل صعيد ومن أعلى المستويات في دولتنا السقيمة العقيمة.

ضرب البقاعي بعقله الحجر، فانبجست منه مياه الآبار الارتوازية على امتداد السهل الفسيح، لتجعل منه حديقة غنّاء ملأى بالقطوف الدانية لشتى المزروعات، من الحبوب على أنواعها، إلى الخضار على مختلف أصنافها إلى الفواكه بكل عيّناتها ونماذجها، إلى درجة أن هذه المحاصيل في مواسمها السنوية، مؤشر إلى قدرة لبنان على الاكتفاء الذاتي في كثير منها، ومؤشر إلى ارتفاع القدرة الشرائية لدى الناس العاديين، وإن كان البقاع وأهله مظلومين أشد الظلم، لأنهم لا يلقون من الدولة أي عناية أو اهتمام، لا في التوجيه الزراعي ولا في حسن استخدام الأسمدة والأدوية الزراعية، ولا في ضمان تسويق الإنتاج لينال الفلاح تعبه، ويفرح بندى عرق جبينه.

ضرب البقاعي بعقله الحجر، فانبجست منه أعاجيب المغاور، فوق الأرض وتحت الأرض، تحتاج إلى من يجعل منها مرافق سياحية واعدة، مع غنى في الآثار المنسية، التي يمثل تل كامد اللوز نموذجها الصارخ، حيث عبث به العدو الصهيوني أثناء اجتياح سنة 1982، ثم أصبح منسياً بعد التحرير، ولم ير البقاعيون من دولتهم من يبادر لمزيد من الكشف عن هذا الكنز النفيس، ومثل تل كامد اللوز أماكن أخرى في معظم قرى السفح في السلسلتين الشرقية والغربية.

ضرب البقاعي بعقله الحجر فانبجست منه شواهد التاريخ وشواهقه، متخذة أعمدة قلعة بعلبك، قامات إنسانية تدل على عظمة التاريخ وعراقة الحضارة، وتشير إلى خصب هذه الأرض وإنباتها النبات

الحسن، الذي جعل منها إهراءات روما، ثم اختط هذا الينبوع الثر لنفسه مجرى الحياة على طول سهل البقاع الخصيب، واجداً في إحدى هضبات السلسلة الشرقية، مكاناً يطل على كامل الوادي، في مجدل عنجر، فكانت القلعة الأخرى، التي ربطت بين البقاع ودمشق، حيث اتخذ منها الأموي مقر إقامة كما اتخذ منها المعني فخر الدين داراً لإدارة الحرب، تاركاً مجرى النبع الصافي يأخذ مساره إلى راشيا لتكمل قلعتها الثالوث الحصين، لقلاع هذا الوادي المهيب.

ضرب البقاع بعقله الحجر، فانبجست منع أعلام الزمان في السياسة وحسن القيادة، فكان بساط الأرض في الهرمل. بعلبك، المكان المفضل لعقبة بن نافع، لاستراحة قصيرة لجيشه الفذ في الطريق إلى فلسطين وصولاً إلى مصر فبلاد المغرب العربي، حيث حط رحاله في القيروان التي أصبحت حاضرة عصرها، علماً وعلماء، وثقافة ومثقفين، واستمر جامعها إلى اليوم شاهداً على تاريخ عريق.

وكان مسار الطريق من الموصل إلى دمشق، موسوماً بكل ما هو شهي في البقاع، حين اجتازه عماد الدين الزنكي، مفتتحاً مرحلة جديدة في تاريخ هذه الأمة، ولأَّداً أثناء مسيرته لشخصية حادة الفطنة والذكاء، في أمور السياسة والحرب على حد سواء، فكان صلاح الدين الذي أتمَّ استعداده لمعركة حطين، باتخاذ جبل الشيخ ظهيراً له، مُعَسْكِراً في سفحه المظلل براشيا، التي شاء الله لها أن تشهد استقبال نخبة من المبعدين من الفلسطينيين، الذين استطاعوا في أقل من سنة أن يكونوا توأم الروح بين لبنان وفلسطين.

ضرب البقاعي بعقله الحجر، فانبجست منه ينابيع الأعلام في شتى العلوم والمعارف، من قسطابن لوقا البعلبكي، إلى الإمام الأوزاعي، إلى خليل مطران، إلى أغنى مكتبة كلاسيكية خاصة على مستوى لبنان والوطن العربي، أعني بها مكتبة الحسيني، التي هي من مناجم البقاع الثقافية، حيث لا يدانيها أي مشروع ثقافي معرفي خاص على الإطلاق.

نعم.. البقاعي يحفر الأرض بيديه، ويحمل رزقه بين ساعديه، ويكدح بعقله المنير المستنير، مقيماً عمارته الخاصة، التي لها شعاع جاذب لا تخطئه العين، ولذلك نراه هو نفسه خلف المحراث في الحقل، وعلى منبر الثقافة في الندوات، شاقاً طريقه إلى النجاح في جميع المجالات الإنسانية، باحثاً دائماً عن وميض البرق في آفاق الفكر الحر الخلاق، وهذا ما يدركه بسرعة كل من يتصفح مجلة (وميض) التي هي وثبة في عالم البحث المعمّق، مستقطبة نخبة من أهل القلم والكتاب، في كل عدد من أعدادها، بفضل الجهد الحثيث الذي تقوم به الدكتورة هيفاء الإمام، في زمن حصار الكلمة، وضرْبِ أطواق الرُّهاب الاقتصادي والاجتماعي على أصحاب الفكر والعقل.